الفصل الثانى

علـــــم الأشبـــاح والأحداث الأخيرة

obeikan.com

obeikan.com

ترى، هل يمتد الخط إلى حافة الهلاك؟

«وليم شكسبير، ماكبث»

«الرؤيا» كلمة توحى بتكشف ما ظل خفيًّا. وهى تحمل معنى أن السر المتكشف ليس لغزًا وحسب، بل شديد الغموض بل قد يكون ذا خطر ـ إنه «عِلم الأشباح» على حد التعبير الساخر للفيلسوف الشعبى آلن واتس[1]. ولا شىء فى الكتب المقدسة اليهودية أو المسيحية يتسم بهذا القدر من «الشبَحية» كسفر الرؤيا.

ومع ذلك فسفر الرؤيا ليس فريدًا بين الكتابات التى ضمَّنها الناس أخيلتهم الروحية. فالعرافون والكهنة وأدعياء النبوة فى كل زمان وفى كافة أنحاء العالم يدعون أنهم يسمعون أصواتًا ويرون رؤى، أحيانًا بمدد إلهى وفى أحيان أخرى برُقى صوفية أو وصفات سحرية، وفى أحيان ثالثة بالاستعانة ببصيرتهم النافذة الخاصة. فهناك ما يجمع بين وسيطة الوحى فى دلفى القديمة [مهبط وحى الإله أپوللو، المترجم] التى يعتقد أنها كانت تبدأ غمغماتها النبوئية بعد إطلاق أدخنة هذيانية تنبعث من شق تحت موضعها المقدس على جانب التل، وخبير الحواسب المعاصر حين يستعين بمعالج بيانات دقيق الحجم لحل شفرات ما يسميه «شفرات الكتاب المقدس».

والمؤلف الأصلى لسفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ يدخل ضمن هذا الموروث نفسه. فمما لا شك فيه أنه كان شاعرًا موهوبًا وواعظًا مفوهًا، وقد لا يجد بعض من قرائه غضاضة فى اعتباره حالمًا صادقًا كان يسمع أصواتًا ويرى رؤى من علٍ. إلا أن سفر الرؤيا لم ينبع من رأسه كشىء حادث مكتمل. فهناك مسحة لاهوتية وقدسية يمكن استخلاصها من نص السفر، ويمكن الرجوع بنَسبها إلى نصوص أقدم كثيرًا وأغرب كانت تعتبر مقدسة قبل أن يوحَى لكاتب سفر الرؤيا أن يجهر برؤاه عن نهاية العالم.

فكاتب السفر، مثلاً، لم يكن أول من يدعى رؤية رؤى صوفية من البشر، ولا كان أول من قوبلت دعاواه بالشك من قبل حراس القانون والنظام الدينيين. فالدين المؤسسى دائمًا ما كان يزعجه ظهور مجرد إنسان فان يدعى الاتصال بالله، لا سيما الفانى الذى لم يتم ترسيمه حبرًا أو قسًّا أو إمامًا أو كاهنًا. ويشتمل الكتاب المقدس العبرى على فقرة تستبعد أى لقاء مباشر بين الإله وأحد من البشر: «لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِى لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَرَانِى وَيَعِيشُ»[٢]. قد يشاء الرب من حين لآخر أن يتصل ببشر بالطبع ولكن بطرق غير مباشرة: «إِنْ كَانَ مِنْكُمْ نَبِىٌّ لِلرَّبِّ فَبِالرُّؤْيَا أَسْتَعْلِنُ لَهُ فِى الْحُلمِ أُكَلِّمُهُ»[٣]. وحتى فى هذه الحال، فإن بعض الأسرار الإلهية تعد غير ملائمة للاستهلاك الآدمى. يقول موسى محذرًا فى سفر التثنية: «السَّرَائِرُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا»[٤].

وانتقلت القاعدة الصارمة نفسها إلى كتب المسيحيين المقدسة، وهى حقيقة دفعت ببعض السلطات المسيحية الأولى لإعلان عدم أهلية سفر الرؤيا للانضمام إلى أناجيل العهد الجديد. يقول بولس «فَإِنِّى آتِى إِلَى مَنَاظِرِ الرَّبِّ وَإِعْلاَنَاتِهِ» ولكن هذه هبة لا توهب إلا إذا شاء الرب أن يهبها: «فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِى مِرْآةٍ فِى لُغْزٍ»[٥]. ولمزيد من الإيضاح، يروى حكاية رجل كان عرفه اختُطف إلى «السماء الثالثة» حيث سمع «كَلِمَاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا» ــ هل يشير بولس على استحياء لرؤى وجدية رآها هو؟ ــ ولكنه يأبى أن يبوح بما سمع فى السماء؛ لأنه «لاَ يَسُوغُ لإِنْسَانٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا»[٦].

وهكذا فإن مخاطر التنبؤ كانت دائمًا واضحة أمام حراس العقيدة القويمة بدءًا من العصور التوراتية القديمة وإلى يومنا هذا. وما داڤيد كورش و«طائفة الداوديين» وچيم چونز و«معبد العباد» وأسامة بن لادن والقاعدة وغيرهم من المتعصبين الدينيين الأقل شهرة، ولكنهم ليسوا أقل خطرًا، إلا نماذج معاصرة لما قد يحدث حين يقنع إنسان تساوره أوهام بالعظَمة أو نوازع اضطهاد أو أخيلة محمومة أو يحظى بجاذبية شخصية غامضة، بأنه مبعوث برسالة من الإله. وسنلتقى على صفحات هذا الكتاب بالعديد من أمثال هؤلاء ممن استثارهم ما قرءوا فى سفر الرؤيا. وآل مصير كثير منهم إلى مخلعة التعذيب أو مقصلة الإعدام.

وليس كل من عين نفسه نبيًا بالغيب ينتهى به الحال بالموت أو التجريس. فهناك قلة منهم على مر التاريخ حظوا بمكانة الأنبياء الصادقين. فموسى وبولس ومحمد تم قبولهم والاحتفاء بهم كأنبياء أسسوا ديانات الغرب الثلاث الكبرى، إلا أن القائمة تضم أيضًا مجددين دينيين أحدث زمنًا من أمثال چوزيف سميث (١٨٠٥ ـ ١٨٤٤م) مؤسس العقيدة المورمونية، وميرى بيكر إدى (١٨٢١ ـ ١٩١٠م) مؤسِّسة «العِلم المسيحى». ولا يزال رئيس «كنيسة قديسى اليوم الآخِر» يحمل لقب «نبى» و«نبىء» و«رسول» إلى يومنا هذا.

وفى مساحة ما بين هذين العالمين ـ الأنبياء الذين تعلمنا أن نأخذهم مأخذ الجد وأدعياء النبوة ممن ننزع إلى اعتبارهم مجانين خطرين ـ تقع منطقة من الخيال والتأمل الدينى ليست ملكًا لأحد، وفيها نجد تشكيلة منوعة من غرباء الأطوار والمجاذيب ممن يطلبون من معاصريهم أن يؤمنوا بأن خفايا الإله وأسراره تكشفت لهم. ومن هؤلاء مؤلف سفر الرؤيا، وسنرى أن رؤاه تضرب بجذورها فى أرض الأشباح هذه.

الحقيقة أنه لكى نفهم سفر الرؤيا، علينا أن نسبر غور الكتابات الأقدم زمنًا، بل الأغرب مضمونًا التى صاغت خيال كاتبها. فمن الواضح أنه عرف العديد من الكتابات الرؤيوية الأقدم فأعجبته فاستعار منها ما شاء. ومن الفقرات التى تثير الحيرة فى سفر الرؤيا ما يقفز إلى بؤرة التركيز بحدة عند النظر إليه من منظور التراث الرؤيوى. فذلك السفر من الكتاب المقدس والذى يعرف أحيانًا باسم «الرؤيا» ليس إلا واحدًا من رؤى عدة ـ كما سنرى.

«الرؤيا» إحدى المسميات العديدة التى تطلق على النص الدينى القديم الذى يتضمنه آخر أسفار العهد الجديد، لكن الكلمة نفسها يستعملها الباحثون أيضًا فى توصيف أى نص يصف فيه كاتبه المعارف الخفية التى تكشفت لبشر من قبل كيان غيبى من نوع ما. إذن فسفر الرؤيا ليس إلا «رؤيا» واحدة وليست الأولى أو الوحيدة؛ فتراكمت عبر القرون مكتبة كاملة من الرؤى، أنشئ بعضها قبل سفر الرؤيا بمدة طويلة وبعضها بعده بمدة طويلة. وهناك ـ على سبيل المثال ـ مصدر يهودى يرجع إلى القرن

الأول يبدو أن صاحبه كان يعرف ما يقرب من سبعين رؤيا كانت موجودة بالفعل فى تلك الفترة من التاريخ التى ظهر فيها سفر الرؤيا.

كل الرؤى التى بقيت من العصور القديمة تم استبعادها من الكتاب المقدس بصورته الحالية والمتداولة فى التراث اليهودى والمسيحى إلا اثنتين. والاستثناءان الوحيدان سفر دانيال فى الكتاب المقدس العبرى، وسفر الرؤيا فى العهد الجديد. بل إن الرؤى اليهودية غير التوراتية تجنبها كهنة اليهود من حراس النصوص اليهودية فى أواخر العصور القديمة. ومن الغريب أن الكتابات اليهودية الغريبة كـ«سفر الحراس» و«رؤيا الحيوان» لم تبق، إلا لأن الباحثين وعلماء اللاهوت المسيحيين القدامى صانوها وتدارسوها.

وضاع بعض من أغرب النصوص الرؤيوية من اليهود والنصارى على السواء إلى أن أعيد اكتشافها وتم استرجاعها فى القرن العشرين. وتم العثور على بعض الرؤى ضمن لفائف البحر الميت بموقع يسمى «خربة قُمران» بصحراء يهوذا(*) مثلاً، ودفائن النصوص الغنوصية بنجع حمادى على ضفتى نهر النيل بمصر. وتم إدراج العديد من أقدم النصوص الرؤيوية فى مجموعة نصوص قديمة يعرفها الباحثون باسم «الكتابات المشكوك فيها»، وهو مصطلح ينم عن أنها غالبًا ما تنسب لشخصيات توراتية يبدو واضحًا أنها لم تدونها.

وأى نص رؤيوى قد يكشف من حيث المبدأ كافة أنواع «الخفايا»، بما فى ذلك الأسرار والمعجزات التى لا صلة لها بنهاية العالم. ومؤلف أى نص من هذا النوع يبدأ عادةً بوصف زيارة يقوم بها الإله أو أحد الملائكة أو كائن سماوى آخر ما. وقد يقود الزائر العلوى المؤلف فى «جولة إرشادية» فى السماء، أو يهب المؤلف رؤيا عن أورشليم [القدس] بالصورة التى ستكون عليها فى المستقبل البعيد، أو يعرض على المؤلف «معجزة كونية» ما من قبيل «مستودع الريح» أو«حجر أساس الأرض»(٧). وفى بعض الحالات يسمح الزائر النورانى للمؤلف بإلقاء ناظرة خاطفة على كون

(*) قريبة من البحر الميت بالأردن.

موازٍ محجوب فى العادة عن أعين البشر العاديين. وفى بعض الحالات يكشف الزائر عن الحكمة الكامنة لمشيئة الإله الخفية فى بنى آدم كمغزى الأحداث التى وقعت بالفعل والأحداث التى لم تقع بعد أى: «التاريخ الماضى» و«التاريخ المستقبلى» على السواء[٨].

إلا أن التركيز الأول فى معظم الكتابات الرؤيوية (إن لم يكن فيها جميعًا) هو «الآخرة» أو آخر الزمان، أى كيف سينتهى العالم ومتى. والفضول فيما يتصل بآخر الزمان من ثمار البدع اللاهوتية الكبرى لليهودية. فكانت الحضارات الوثنية القديمة ووفقا لحكمة ما متعارف عليها ترى العالم دائرة لا تنتهى من الميلاد والموت والميلاد من جديد: أى «العودة الأبدية للنقطة نفسها» حسب تعبير فريدريش نيتشه[٩].

إلا أن مؤلفى الكتاب المقدس العبرى كانوا يعتنقون الفكرة الثورية الجديدة التى تقول بأن إله إسرائيل يُنفِذ مشيئته من خلال التاريخ البشرى، والتاريخ كأية قصة متقنة له بداية ووسط ونهاية. يقول المؤرخ المعاصر رينى شوفلين: «أية رؤيا لا تكون منطقية إلا فى كون يحكمه إله للتاريخ»[١٠].

وهناك سمات مشتركة لآخر الزمان فى تصور التراث الرؤيوى اليهودى والمسيحى: محنة يعانيها البشر على يد الطاغية الشيطانى، ومجىء مخلِّص أو منقذ إلهى، ثم معركة فاصلة بين قوى الخير وقوى الشر، ثم بعث للموتى، ثم يوم حساب، وفى النهاية بدء حقبة جديدة من الكمال الإلهى هنا على الأرض فى بعض الحالات وفى مملكة سماوية فى حالات أخرى. وهذه الخطوط القصصية العريضة كلها متوفرة فى سفر الرؤيا بالطبع، ولكنها موجودة أيضًا فى نصوص أقدم كانت تُقرأ قبل المسيحية بفترة طويلة.

والحقيقة أن التراث الرؤيوى يرجع إلى ما قبل تدوين سفر الرؤيا بقرون عدة، ولم تكن الفكرة كما ثبت تقتصر على العالم اليهودى المسيحى، فعلى خلاف تصور نيتشه يمكن العثور على تأملات فى مصير العالم فى المستقبل البعيد فى الكتابات الوثنية ببلاد الرافدين ومصر واليونان وروما. فكانت «كهانات العرافين» مثلا: أقوال غامضة لنسوة كان يعتقد أن لديهن قدرة إلهية على التنبؤ بالغيب يُرجع إليها بصورة روتينية فى العالم

الوثنى القديم للتنبؤ بمصير البشر والإمبراطوريات على السواء. وكانت هذه العادة محيرة بالنسبة لأغسطس أول أباطرة الرومان، حتى أنه أمر بمصادرة ألفى نسخة من «كهانات العرافين» وحرقها، وهو مثال على مدى الخطورة التى يمكن أن تترتب على تتبع «تاريخ المستقبل»[١١].

يرى بعض الباحثين أن التراث الرؤيوى يمكن ربطه بمصادر أقدم وأغرب. فالعديد من تكهنات آخر الزمان التى ترد فى الكتاب المقدس ـ «علامات الساعة ومحنها وصراع الإله ومسيحه ضد الشر، وشخصية الشيطان وزبانيته»[١٢]ـ يمكن تتبعها والرجوع بها إلى الكتابات الزردشتية ببلاد فارس، وقد يكون أقدمها أقدم من أى من النصوص اليهودية أو المسيحية بعدة مئات من السنين. لذا فإن منشأ الفكر الرؤيوى وغيره كثير مما نجد فيما يعرف بالتراث اليهودى المسيحى قد يكون فارس القديمة لا «الأرض المقدسة».

إذن فالمؤلفون الرؤيويون الأوائل ربما كانوا على علم بـ«الرؤى الأولية» التى نشأت خارج أرض إسرائيل، وكانت بمثابة «نماذج ومصادر» للتراث الرؤيوى الذى يعد سفر الرؤيا أكمل تعبير عنه[١٣]. ومن غير المجدى أن نفكر فى كيفية تسلل الرؤى الغريبة والمخيفة لكهنة المصريين وموابدة الفرس ومتنبئى اليونان إلى قلب الكتابات المقدسة اليهودية والمسيحية وروحها. فالنماذج والمصادر التى أوحت بسفر الرؤيا أقرب كثيرًا، إذ يمكن العثور عليها فى الكتابات التوراتية لليهودية القديمة التى كان مؤلف سفر الرؤيا يعرفها ويحبها وينسخها.

إن بعضًا من أكثر شخصيات سفر الرؤيا ومشاهده ألفة يمكن ردها إلى فقرات بعينها من الكتاب المقدس العبرى، كالشيطان وجيوش جوج وماجوج الشيطانية ويوم الحساب ونهاية العالم وغير ذلك كثير. إلا أننا حين نطالع ما هو مدون صراحة فى النصوص المصدرية، يتبين لنا أن مؤلف سفر الرؤيا لم يشعر بأنه مضطر للبقاء على ولائه لما كان يعتبره نصًّا مقدسًا. بل كان يشعر بأنه حر فى المبالغة بل فى إعادة صوغ ما وجد على صفحات الكتاب المقدس، واستعار أفكارًا وصورًا من مصادر أغرب كثيرًا، أو لعله أقدم على الأمرين معًا، وهو الأرجح.

فإبليس ـ على سبيل المثال ـ لم يحظ فى الكتاب المقدس العبرى إلا بدور ثانوى، ولا يصور قط فى صورة الشيطان الأكبر كما تصوره مؤلف سفر الرؤيا. فحين يرد له ذكر فهو لا يزيد عن «متهِم» أو «غريم» ـ المعنى الحرفى للفظ العبرى ـ لا المعادل الشيطانى للرب. بل إن اللفظ حين يرد لأول مرة فى الكتاب المقدس العبرى فإنه يطلق على داود الملك على لسان ملك فلسطينى تمييزًا له كعدو فى ساحة القتال[١٤](*). وحتى حين يستعمل اللفظ للتعريف بشخصية سماوية، فإن الشيطان «ليس اسم علم، بل مجرد لقب يدل على الوظيفة فى بلاط الرب السماوى» بتعبير هـ. هـ. رولى وهو أحد كبار العلماء واللاهوتيين المعمدانيين بأوائل القرن العشرين «فكان بمثابة المدعى العام على منصة العدل الإلهى»[١٥].

وأبرز ذكر للشيطان فى الكتاب المقدس العبرى يرد بسفر أيوب، حيث يؤدى دور مستشار إلهى يلمِّح بخبث إلى احتمال أن يكون أيوب أقل تقى مما يتصور الرب. وما أن يفلح الشيطان فى استثارة فضول الرب يمكنه الرب، من امتحان قوة إيمان أيوب بإصابته ببلايا عدة بدءًا بتلك البثور الشهيرة وانتهاءً بموت زوجته وأطفاله المحبوبين. فيقول الرب للشيطان: «هَا هُوَ فِي يَدِكَ وَلَكِنِ احْفَظْ نَفْسَهُ»[١٦]. إذن فالسلطة الوحيدة التى يتمتع بها الشيطان فى الكتاب المقدس العبرى هى تلك التى يمنحها إياه الرب لامتحان قوة إيمان أيوب، والمسألة برمتها ضرب من الاختبار العملى لحدود قدرة البشر على تحمل العذاب.

كما يرد ذكر جوج وماجوج فى سفر الرؤيا كأمتين تضعان جيوشهما تحت إمرة الشيطان فى المعركة الفاصلة فى آخر الزمان. ولكن حين يرد ذكرهما لأول مرة على لسان النبى حزقيال فى الكتاب المقدس العبرى، نجد أن جوج ملك وماجوج بلد يتولى حكمها، ولا ذكر للشيطان. والمؤكد أن حزقيال يتنبأ بنشوب معركة بين إسرائيل

(*) النص كما جاء فى نسخة الملك چيمس بالإنجليزية كالتالى:
But the princes of the Philistines, and do not let him were angry with him; so the princes of the Philistines said to him, "Make this fellow return, that he may go back to the place which you have appointed for him and do not let him go down with us to battle, lest in the battle he become our adversary. For with what could he reconcile himself to his master, if not with the heads of these men?".

و « جوج أرض ماجوج » ، ولكنها ليست صدامًا عنيفًا بأسلحة تدفع بالعالم إلى نهايته[١٧]. بل يدعو الرب الملك جوج لغزو أرض إسرائيل حتى يتسنى لرب إسرائيل أن « يَتَعَظَّمُ ويَتَقَدَّسُ » بالمن على بنى إسرائيل بنصر عظيم[١٨]. وحين يتم القضاء على جيش جوج ويتم إخلاء الجثث من ساحة المعركة ، يعود بنو إسرائيل من جديد ليسكنوا « فِى أَرْضِهِمْ مُطْمَئِنِّينَ وَلاَ مُخِيفٌ »[١٩]. وكما حدث مع أيوب ، يتضح أن القصة الدامية برمتها من تخطيط الرب نفسه لحكمة فى نفسه : « يَعْلَمُونَ أَنِّى أَنَا الرَّبُّ إِلَهُهُمْ بِإِجْلاَئِى إِيَّاهُمْ إِلَى الأُمَمِ ، ثُمَّ جَمْعِهِمْ إِلَى أَرْضِهِمْ »[٢٠].

وحتى حين يبدو أحد أنبياء العبرانيين وكأنه يتنبأ بنهاية العالم مستعينًا بالألفاظ والعبارات المألوفة لقراء سفر الرؤيا ، فهو فى الحقيقة يصف شيئًا مختلفًا تمامًا عما نجد فى النص المسيحى. يقول الرب فى سفر عاموس : « قَدْ أَتَتِ النِّهَايَةُ » و « أَنِّى أُغَيِّبُ الشَّمْسَ فِى الظُّهْرِ وَأُقْتِمُ الأَرْضَ فِى يَوْمِ نُورٍ »[٢١]. إلا أن النبى عاموس ، وعلى خلاف مؤلف سفر الرؤيا لا يتنبأ بأن الرب سيدمر الأرض ويستبدل بها فردوسًا سماويًّا فى السحب. بل سينقذ الرب بنى إسرائيل حسب قول عاموس ؛ لأنهم ظلوا أوفياء للشريعة الإلهية ولن يهبهم شيئًا أسمى من حياة طيبة على الأرض.

« فَيَبْنُونَ مُدُنًا خَرِبَةً وَيَسْكُنُونَ وَيَغْرِسُونَ كُرُومًا.
وَيَشْرَبُونَ خَمْرَهَا وَيَصْنَعُونَ جَنَّاتٍ وَيَأْكُلُونَ أَثْمَارَهَا.
وَأَغْرِسُهُمْ فِى أَرْضِهِمْ.
وَلَنْ يُقْلَعُوا بَعْدُ مِنْ أَرْضِهِمِ الَّتِى أَعْطَيْتُهُمْ »[٢٢].

ومن الثابت أن بعض أنبياء العبرانيين كانوا قادرين على رؤية رؤى غريبة من النوع الذى يصادفنا فى سفر الرؤيا وغيره من الكتابات الرؤيوية. فكما يفعل مؤلف سفر الرؤيا ، يدعى حزقيال أنه رأى وحوشًا شائهة وظواهر خارقة لا وجود لها فى عالم الطبيعة. ومن بين العلامات التى يرى حزقيال ، مثلاً ، أربعة مخلوقات لها أجسام بشر وحافر عجل واحد وأربعة أجنحة ويد بشرية تحت الريش ورأس بأربعة وجوه : وجه فى المقدمة ووجه نسر فى الخلف ووجها أسد وثور على الجنبين[٢٣]. ويصف كيف

تتحرك هذه المخلوقات على «بَكَرات» من نار، وهو اختراع أقنع بعض قراء حزقيال اللاحقين بأن ما رأى لم يكن سوى أطباق طائرة. يقول حزقيال: «فَإِذا سَارَتِ الْحَيَوَانَاتُ سَارَتِ الْبَكَرَاتُ بِجَانِبِهَا، وَإِذا ارْتَفَعَتِ الْحَيَوَانَاتُ عَنِ الأَرْضِ ارْتَفَعَتِ الْبَكَرَاتُ»[٢٤].

هناك إذن نوع من الارتباط الچينى بين أنبياء الكتاب المقدس العبرى التقليديين ومؤلفى الكتابات الرؤيوية. ذلك أن «الرؤيوى ابن النبوة» كما يقول رولى[٢٥]. إلا أن الأنبياء التوراتيين يختلفون فى جوانب مهمة عمن نجد فى الكتابات الرؤيوية. فعلى خلاف كتّاب التراث الرؤيوى ممن تعجبهم «الجولات الإرشادية» فى السموات السبع يظل الأنبياء التوراتيون هنا على الأرض. يقول المؤرخ برنارد مكجين وهو من أبرز من درسوا التصوف المسيحى والرؤيوية فى العصور الوسطى: «ليس من بين أنبياء العبرانيين ولا حتى أشعياء وحزقيال من صعد إلى السماء. بل كان الرب يتعطف بأن يهبط بنفسه إلى الأرض»[٢٦]. وحين يستطلع أنبياء اليهود المستقبل ليحددوا مصير البشرية فهم لا يتصورون فردوسًا سماويًّا بل آخر أرضيًّا.

والمفهوم اليهودى عن وجود مملكة أرضية يحكمها ملِك مرسل من عند الرب كما سنرى، يظهر فى سفر الرؤيا ضمن رؤيا حكم يسوع المسيح الذى يدوم ألف سنة فى أعقاب معركة أرمجدون. بل إن هذا يقوم دليلاً على الأصول اليهودية لمؤلفه وقرائه الأوائل، كما كان هذا من أسباب صعوبة تقبل سفر الرؤيا حين كان المسيحيون الأوائل بصدد تحديد أى الكتابات يدخل ضمن الكتاب المقدس. لكن هذا ليس أكبر اختلاف أو الاختلاف الوحيد بين أنبياء الكتاب المقدس التقليديين والمؤلفين الرؤيويين. وكان التجديد اللاهوتى الوحيد فى التراث الرؤيوى ردًّا جديدًا وثوريًّا على سؤال قديم وخالد: لمَ لا تصيب البلايا إلا الطيبين؟

يعتبر مؤلف سفر الرؤيا «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ» مصدر الشر فى العالم[٢٧]. أما أنبياء العبرانيين، فلا يبدو كما رأينا أنهم كانوا يعرفون الكثير عن الشيطان أو يهتمون به، وكانوا يعتنقون فكرة بسيطة وإن كانت مؤلمة، فحواها أن كل

شىء خيرًا كان أو شرًّا يبدأ بالرب وينتهى به. فإذا غزت جيوش جوج أرض إسرائيل مثلا ، فهذا لأن الرب ساقهم ليقوموا بذلك ، وإذا هزم بنو إسرائيل الغزاة فهذا لأن الرب وهبهم النصر فى المعركة. وإذا خسر «الشعب المختار» حظوة الرب فلا يلومون إلا أنفسهم.

والمعادلة الأخلاقية مدونة بوضوح فى الكتاب المقدس. فيرد فى التوراة أن الرب وهب بنى إسرائيل «عهدًا» ، أى عقدًا بسيطًا. فإن أطاع بنو إسرائيل الشريعة التى أوحى الربَّ بها لموسى فوق طور سيناء فإن الرب سينزل عليهم نعمه. وإن عصوا تلك الشريعة فإن الرب سينزل عليهم لعناته. وهكذا فالرب فى لب لاهوت الكتاب المقدس هو كاتب التاريخ الأوحد والحكَم الأوحد فيما يجرى على الإنسان. وبالتالى فإذا استفز الربَّ عناد «الشعب المختار» ومعصيته فأنزل بهم الجوع أو الوباء أو الغزو أو السبى فمعنى ذلك أنهم ينالون ما اتفقوا عليه وما يستحقون.

ومن أبشع فقرات الكتاب المقدس تلك التى يقدم موسى فيها قائمة باللعنات التى سينزلها الرب ببنى إسرائيل «إِنْ لمْ تَحْرِصْ لِتَعْمَلَ بِجَمِيعِ كَلِمَاتِ هَذَا النَّامُوسِ المَكْتُوبَةِ فِى هَذَا السِّفْرِ لِتَهَابَ هَذَا الاِسْمَ الجَلِيل المَرْهُوبَ الرَّبَّ إِلهَك» . ويحذر موسى فى سفر التثنية من بشاعة موكب الفظائع لدرجة أن «تَكُونُ مَجْنُونًا مِنْ مَنْظَرِ عَيْنَيْكَ الذِى تَنْظُرُ»[٢٨].

سينزل الرب «بالشعب المختار» ، «ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً رَاسِخَةً وَأَمْرَاضًا رَدِيئَةً ثَابِتَةً» بدءًا من «البَوَاسِيرِ وَالجَرَبِ وَالحِكَّةِ» وصعودًا إلى «جُنُونٍ وَعَمًى وَحَيْرَةِ قَلبٍ» وانتهاءً باللعنة الرمزية للشعب اليهودى ــ الغزو والشتات والسبى والاستعباد. فينذر موسى قائلاً : «أُمَّةً لا تَفْهَمُ لِسَانَهَا ، أُمَّةً جَافِيَةَ الوَجْهِ لا تَهَابُ الشَّيْخَ وَلا تَحِنُّ إِلى الوَلَدِ»[٢٩].

من الغريب أن البرىء سيعانى قدر معاناة الآثم ــ فالرجال والنساء والأطفال والرضع سواء ـ وكل هذا لأن الرب شاء ذلك. يقول موسى محذرًا : «تَخْطُبُ امْرَأَةً وَرَجُلٌ آخَرُ يَضْطَجِعُ مَعَهَا ... يُسَلمُ بَنُوكَ وَبَنَاتُكَ لِشَعْبٍ آخَرَ وَعَيْنَاكَ تَنْظُرَانِ إِلَيْهِمْ طُول النَّهَارِ فَتَكِلانِ وَلَيْسَ فِى يَدِكَ طَائِلة»[٣٠]. وفى حصار الجيوش الغازية لهم فى مدنهم

سيتدنى بنو إسرائيل إلى درك أكل لحم البشر. ولعل أبشع مشهد فى الكتاب المقدس كله ذلك المشهد الذى تخفى فيه أم شابة «متنعمة ومترفة» بمشيمة وليدها الذى لم يولد وبالوليد نفسه وبأولادها الآخرين كما يقول موسى «لأَنَّهَا تَأْكُلُهُمْ سِرًّا فِى عَوَزِ كُلِّ شَىْءٍ فِى الحِصَارِ وَالضِّيقَةِ التِى يُضَايِقُكَ بِهَا عَدُوُّكَ فِى أَبْوَابِكَ»[٣١].

وهكذا فأنبياء العبرانيين لا يجدون العيب إلا فى بنى إسرائيل أنفسهم. ولا يذكرون الشيطان أبدًا، ولا يلقون باللائمة على ما آل إليه بنو إسرائيل من مصير تعس على الملوك الوثنيين الذين ورد فى الكتاب المقدس أنهم غزوا أرض إسرائيل. بل إن الطغاة الأجانب، وفقًا لمنطق الأنبياء التوراتيين كما رأينا يسوقهم الرب، فيعانى بنو إسرائيل المصير الذى توعدهم الرب به فى التثنية. ويبين النبى إرمياء هذه المسألة ضمن تعليله الغزو البابلى فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد قائلاً: «وَيَكُونُ حِينَ تَقُولُونَ: لِمَاذَا صَنَعَ الرَّبُّ إِلَهُنَا بِنَا كُلَّ هَذِهِ؟ تَقُولُ لَهُمْ: كَمَا أَنَّكُمْ تَرَكْتُمُونِى وَعَبَدْتُمْ آلِهَةً غَرِيبَةً فِى أَرْضِكُمْ هَكَذَا تَعْبُدُونَ الْغُرَبَاءَ فِى أَرْضٍ لَيْسَتْ لَكُمْ»[٣٢].

والرب أيضًا هو الذى يحدد توقيت رفع اللعنات التى أنزل بشعبه حسب قول الأنبياء التوراتيين. فحين هُزم البابليون فيما بعد على يد إمبراطورية الفرس المنافسة لهم، تم السماح لليهود المسبيين بالعودة إلى ديارهم بيهوذا وبإعادة بناء الهيكل بأورشليم [القدس]. لذا فإن كورش إمبراطور فارس يلقى الثناء فى الكتاب المقدس باعتباره مخلِّص الشعب اليهودى، ولذا يُرجع الفضل كله للرب؛ لأنه هو الذى ساقه لخلاصهم. يقول النبى أشعياء فى فقرة تثير المشاعر: «هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ لِمَسِيحِهِ لِكُورَشَ الَّذِى أَمْسَكْتُ بِيَمِينِهِ... لأَجْلِ عَبْدِى يَعْقُوبَ وَإِسْرَائِيلَ مُخْتَارِى دَعَوْتُكَ بِاسْمِكَ. لَقَّبْتُكَ وَأَنْتَ لَسْتَ تَعْرِفُنِى»[٣٣](*).

(*) النص كما جاء فى نسخة الملك چيمس بالإنجليزية كالتالى:

1- Thus says the Lord to His anointed, to Cyrus, whose right hand I have held – to subdue nations before him and loose the armor of kings, to open before him the double dorrs, so that the gates will not be shut:

4- For Jacob My servant's sake, and Israel My elect, I have even called you by your name; I have named you, though you have not known Me.

وعبارة «مسيح» هى بالطبع ترجمة حرفية للكلمة العبرية الأصلية بمعنى «ممسوح». وهكذا فإن المؤلف التوراتى يبين أنه حتى الوثنى يمكن أن يكون مسيحًا إذا شاء رب إسرائيل. واسم «كورش» ذلك المسيح الوثنى الفارسى القديم سيصادفنا مرة أخرى فى تاريخ سفر الرؤيا الطويل وشديد الغرابة. ومسألة ظهور اسم «كورش» فى الكتاب المقدس أولاً ثم تصدره العناوين حتى أواخر القرن الماضى [أواخر القرن العشرين] يدل على استمرار الفكر المسيحانى على قوته.

إلا أن فكرة أن الرب وحده مصدر الخير والشر على السواء بدأت تفقد جاذبيتها فى لحظة كانت النصوص التوراتية فيها لا تزال فى مرحلة التدوين ولم يكن الكتاب المقدس بصورته التى نعرف موجودًا بعد. وفى هذه المرحلة خرج أقدم الكتّاب الرؤيويين فى التراث اليهودى بإحدى أبشع بدعهم، وهى أن الشيطان لا الرب هو الملوم على ما يحدث من شرور. فكان بعض الأتقياء والمتعالين من اليهود يرفضون أن يؤمنوا بأن الرب يمكن أن يبتليهم لمجرد أن بعضًا من قومهم كانوا أضعف إيمانًا، وطفقوا يبحثون عمن يلقون عليه باللائمة، فكان ذلك الشرير الغيبى عدو الرب وخصمه.

كانت مسألة اضطرار الإله لمنازلة إله مضاد ستصدم أنبياء الكتاب المقدس العبرى التقليديين باعتبارها فكرة دخيلة ومحيرة، بل تعد من قبيل الهرطقة. إلا أن الفكرة تملكت قلوب وعقول اليهود الذين عانوا الغزو والسبى والاحتلال والقهر والاغتراب والمذلة على أيدى ملوك وجيوش وثنيين، كان يبدو أن إله بنى إسرائيل غير راغب فى هزمهم أو غير قادر. فشرعت قلة من المجددين الجرآء فى إحداث ثورة لاهوتية بترقية الشيطان التوراتى من منزلة المستشار الإلهى والمدعى العام إلى منزلة أرفع يقوم فيها بدور كبير المتآمرين والمخطط للحرب على الإله نفسه. وهنا يبدأ التراث الرؤيوى الذى قدر له أن يبرز إلى حد بعيد فى اللاهوت المسيحى ولا سيما فى سفر الرؤيا.

كانت نهاية السبى البابلى فى سنة ٥٣٨ ق.م طبقًا لتراث قديم فى اليهودية الربانية نهاية للنبوة أيضًا. فسلم الأحبار بأن الرب كان مستعدًا لأن يكلم قلة مستثناة من البشر كانوا يعيشون فى الماضى البعيد فى الأحلام والرؤى، ولكنهم وجدوا صعوبة فى أن

يؤمنوا بأن بشرًا من معاصريهم وُهبوا تلك الهبة الإلهية. وبينما كان قدامى الأحبار مستعدين لتصور قدوم مخلِّص يأتى بحقبة من السلم والأمن للشعب اليهودى، فإنهم لم يكونوا يصدقون من يدعون أنهم اختُصوا بنبوءات ورؤى عن نهاية العالم. لذا فإن معظم الكتابات الرؤيوية فى أواخر العصر التوراتى تم استبعادها من الكتاب المقدس العبرى نفسه، بل إنها دونت كلها خارج التراث اليهودى. يقول التلمود: «يوم أن تداعى الهيكل أخذت النبوءة من الأنبياء وأعطيت للحمقى والأطفال»[٣٤].

إلا أن تجربة الغزو اليهودية لم تنته. فبعد بضعة قرون من السلم والأمن النسبيين اللذين يمكن أن ينعم بهما إقليم خلفى من الإمبراطورية الفارسية، قام يهوذا بغزوه مرة أخرى بمساعدة جيوش من بلاد بعيدة لم يكن الشعب اليهودى يتكلم لغتها. وكان قائد الجيوش يُدعى «الإسكندر»، وكان من إنجازاته الشهيرة انتشار الحضارة الوثنية التقليدية التى نعرفها باسم الهيلينية. وكان دخول فن الإغريق وحروفهم وأساليبهم وفلسفتهم وديانتهم، لا يقل خطرًا بالنسبة للأصوليين اليهود فى مدينة يهوذا القديمة عن دخول أى جيش وثنى.

يلاحظ أن الرؤى الأولى كانت تدون كرد فعل مباشر لما كانت الهيلينية تمثله من خطر، وهو خطر كان أحيانًا يتخذ صورة احتلال وقهر من قبل جيش أجنبى، ولكن فى الغالب فى شكل إغراء تمثله ثقافة أجنبية تتسم بالثراء والدنيوية والذوق والسعى للمتعة. من ثم ومن الغريب أن الإسكندر الأكبر أيضًا يمكن اعتباره أحد آباء التراث الرؤيوى الذى قُدر له أن يفرز بعد قرون عدة سفر الرؤيا. توفى الإسكندر فى سنة ٣٢٣ ق. م وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره ويتحرق شوقًا لعوالم جديدة يغزوها، ولكنه خلف وراءه إمبراطورية تضم أرض اليهود. وفى يهوذا كما فى غيرها من بقاع العالم القديم، كانت الطبقة العليا المحلية تتوق لاعتناق الأساليب الجديدة المغرية لآخر سادتهم. وما لبثت الأرستقراطية وأهل الفكر من اليهود حتى شرعوا فى التحدث والكتابة باليونانية. وكانت أقدم ترجمة للكتاب المقدس إلى لغة بخلاف العبرية هى النسخة اليونانية التى تعرف بـ«السبعينية». أما محاكاة اليهود سبل اليونان، فتجاوزت حدود التدارس الدينى للنص المقدس فى الترجمة.

يقول سايمن دابناو باحث القرن العشرين الذى أحدث ثورة فى دراسة تاريخ اليهود قبل موته فى المحرقة: «كانوا يترددون على المسارح والتجمعات الرياضية ويقيمون مسابقات معاقرة الخمر واتخذوا سبيل اليونان فى حياة المرح بصورة عامة»[٣٥]. وبدءوا يرسلون أبناءهم إلى المدارس الرياضية، وهى نوع من التعليم أخذوه عن اليونان. وأصبحوا ينادمون الراقصات والمغنيات و«صور الفساد الجذاب التى تعلمها أهل يهوذا من اليونان» حسب قول هنريش جرايتس، وهو أحد رواد المؤرخين اليهود فى القرن التاسع عشر[٣٦]. بل إنهم شاركوا فى المنافسات الرياضية، التى كانت زينة حضارة الإغريق. وبما أن الرياضيين اليونان كانوا يتبارون وهم عراة، فإن بعض المتشبهين بهم من اليهود كانوا يحاولون إخفاء ختانهم بصورة بدائية من جراحات التجميل «فخضعوا لعمليات مؤلمة حتى يزيلوا علامة العهد، وبالتالى ليتجنبوا سخرية اليونان وقت إقامة الألعاب الأولمبية»[٣٧].

كان إغراء الهيلينية قويًّا إلى حد التأثير حتى على الكهنة الذين كانوا يخدمون بهيكل يهوه بأورشليم [القدس]. ففى مرحلة ما، كان المتنافسان على منصب كبير الكهنة يهوديين يدعيان «چيسن» و«مينيلاوس»، وهما اسمان لا وجود لهما فى التوراة بالطبع ولكنهما يبرزان فى صنوها الوثنى، أى الأساطير المقدسة لليونان وروما القديمتين. وعندما رقى چيسن إلى منصب كبير الكهنة وجد من المناسب أن ينشئ معهدًا للمصارعة لتدريب الشباب على فن المصارعة وغيرها من رياضات اليونان فى قلب أورشليم [القدس]. ومما أفزع أتقياء اليهود وأثار غضبهم أنه حتى الكهان المكلفين بمهمة مقدسة هى إدارة القرابين اليومية ليهوه «أهملوا مهامهم لينضموا للمباريات»[٣٨].

كل هذه الممارسات كانت تثير حفيظة الأصوليين المتشددين من اليهود، وهم طائفة أصبحت تعرف باسم «حسيديم» (الأتقياء). كانوا يمقتون انغماس الهيلينية فى متع الدنيا، كعرض الجسد الإنسانى عاريًا ومظاهر اللهو التافه كالمسرح ومدرجات الألعاب الرياضية. وكانوا يتهمون أبناء دينهم من اليهود ممن اعتنقوا أسلوب حياة اليونان بمخالفة الشريعة ويرمونهم بنبذ العهد[٣٩]. ويعرف الصراع المرير بين المتشبهين والأصوليين فى يهوذا القديمة بـ«صراع الحضارات» بين اليهودية والهيلينية[٤٠].

و«صراع الحضارات» بالطبع مصطلح شاع تداوله فى أيامنا هذه فى إشارة إلى أى صراع بين نسقين قيميين أو نمطى حياة متحاربين[٤١]. فكما تواجه حركتا «معارضى الإجهاض» و«مؤيدى حرية الاختيار»(*) كل منهما الأخرى على حدود صراع الحضارات فى العالم الحديث، كان اليهود المتدينون فى القدم ممن كانوا يصرون على الختان باعتباره من الشعائر المقدسة يواجهون اليهود المندمجين ممن اختاروا تجاهل العادات القديمة. وهكذا فإن مصطلح «صراع الحضارات» أو «حرب الحضارات» مفيد فى وصف ما كان معرضًا للخطر فعلا فى التراث الرؤيوى ولا سيما سفر الرؤيا.

إلا أن التوترات التى شهدها عالم اليهود فى القرن الثانى قبل الميلاد لم تكن مجرد نتيجة صدام بين أنصار الاندماج والأصوليين. فالملك الوثنى الذى حكم يهوذا، وكما وصفه كتّاب الأيام الأقدمين وحشًا أشعلت تجاوزاته حرب تحرير قومية بقيادة رجل يدعى يهوذا المكابى (يهوذا المطرقة). وهنا ولأول مرة فى التاريخ المسجل، يمكن لنا أن نتعرف على قدرة الفكر الرؤيوى على تحريك العامة ودفعهم لأن يهبوا حياتهم كجنود أحيانًا وكشهداء فى أحيان أخرى باسم الرب.

ولدى وفاة الإسكندر الأكبر، قسمت إمبراطوريته بين قواده. وكانت أرض يهوذا على صغرها إقليمًا مهمًّا من الناحية الإستراتيجية يمثل جسرًا بريًّا بين أوروبا وآسيا وإفريقيا، ودخلت تحت سيطرة الأسرة السورية التى أسسها أحد قواد الإسكندر يدعى سليوكوس. وبدءًا من سنة ١٧٥ ق.م، كان الملك الحاكم للأسرة السلوقية رجلاً بشعًا ومكروهًا يدعى أنتيوخوس الرابع. وقدر له، كما سنرى بعد قليل، أن يلعب دورًا ذا خطر فى سفر دانيال وهو السفر الرؤيوى الوحيد فى الكتاب المقدس العبرى، وهو نص يمثل أحد «نماذج» سفر الرؤيا ومصادره.

كان من أمجاد الهيلينية تفتحها تجاه المعتقدات والممارسات الدينية، وهى قيمة ميزت عالم الوثنية الكلاسيكية. إلا أن أنتيوخوس الرابع كان نشازًا بين ملوك العالم اليونانى

(*) المقصود بحرية الاختيار حرية الإجهاض.

الرومانى، فكان حاكمًا يتصف بالاستبداد والتعسف والتهور، سعى لقمع الأصوليين اليهود المتشددين فى يهوذا بالقوة. واتخذ لنفسه لقب «أنتيوخوس تجلى الرب»، إلا أن تجاوزاته ضد الشعب اليهودى خروجًا على ما تميزت به الهيلينية من تسامح تجاه ديانات من غزت، حد أن أطلق عليه «أنتيوخوس المجنون».

انزعج أنتيوخوس لانعدام الاستقرار فى يهوذا لأسباب جغرافية ــ سياسية فى الغالب. فحرب الحضارات بين طوائف اليهود شارفت على حالة حرب أهلية، وكان الأصوليون اليهود يسعون للتحالف مع أحد الملوك الوثنيين المنافسين له وهو فرعون مصر، وهو سليل قائد عسكرى آخر عمل فى خدمة الإسكندر. وعندما زحف أنتيوخوس على يهوذا فى طريقه لمصر فى سنة ١٦٨ ق. م، كان هدفه الإستراتيجى تأمين جناحه الجنوبى فى يهوذا قبل شن حرب على الفرعون الدخيل. ولكنه قرر إعادة إقرار القانون والنظام فى يهوذا باقتلاع ممارسة الشعائر اليهودية من خلال سلسلة من الفرامين المهينة.

تم فى عهد أنتيوخوس تجريم الطقوس الأساسية لليهودية، كالختان ومراعاة السبت وقواعد «كشروت» الغذائية، وتم حظر عبادة إله إسرائيل، وأقيمت صورة لزيوس كبير آلهة المعبد الإغريقى بالحرم الداخلى لهيكل يهوه بأورشليم [القدس]. ويروى أنه كان يتم تقديم خنزير قربانًا على مذبح يهوه، وكان كبير الكهنة يؤمر بأكل لحمه، وكان سقطه يلقى على لفائف التوراة. وكل من يأبى تسليم التوراة لكى تحرق علنًا فى أرض يهوذا، كان يتعرض للاعتقال والتعذيب والإعدام على يد فرق الإعدام الخاصة بالملك السورى. يقول يوسفوس المؤرخ اليهودى الذى انتهى أمره بأن وضع نفسه فى خدمة الإمبراطورية الرومانية فى القرن الأول الميلادى: «كانوا يُضربون بالهراوات، وكانت أجسادهم تتمزق أشلاء، وكانوا يصلبون وهم أحياء يتنفسون»[٤٢].

أشعلت هذه الفظائع ثورة المكابيين على الاحتلال والقهر السورى بقيادة يهوذا المكابى الشهير. وتحت قيادة يهوذا، قاتلت المقاومة اليهودية على جبهتين: حرب تحرير قومى ضد الجيش السورى، وصراع ضد اليهود المندمجين ممن اعتبروا زنادقة ومتعاونين.

وكان من مآثر المكابيين ـ على سبيل المثال ـ الختان الإجبارى للذكور اليهود صغارًا وكبارًا على السواء ممن أهملوا هذه الشعيرة القديمة التى ترمز للعهد مع رب إسرائيل. وفى النهاية، هُزمت جيوش أنتيوخوس فى سنة ١٦٤ ق.م، وأقام المكابيون أول دولة يهودية مستقلة منذ أن أرسل آخر ملوك اليهود مسبيًّا إلى بابل.

إلى جانب أعمال الشهادة وحمل السلاح، قام الشعب اليهودى فى القرن الثانى قبل الميلاد بنوع آخر من مقاومة جيش الاحتلال الأجنبى والمتعاونين معهم من المحليين. وبدأ بعض الكُتّاب الرؤيويين فى سرد حكايات بقصد شد أزر «الأتقياء» ممن أبوا التفريط فى عقيدتهم. وغلفوا الحكايات بحجب من الغموض واستحضروا رؤى غريبة بعضها مخيف وبعضها مثير للخيال. وتبَّلوا قصصهم بحنين ووعد مؤكد بيوم ثأر دامٍ من أعدائهم.

كانت النصوص التى أنشئت فى عهد ثورة المكابيين «وليدة إحساس بأن العالم مفكك» حسب تعبير المؤرخ چون كولنز، وهو أحد كبار الباحثين فى الدراسات الرؤيوية الحديثة، وكانت «تدون بغرض شد الأزر والمواساة»[٤٣]. بل إن حكايات الثأر فى آخر الزمان يمكن اعتبارها أداة للدعاية فى حرب قتالية وحرب حضارات على السواء. وكانت ـ كما سنرى ـ أقدم عوامل التراث الرؤيوى فى اليهودية والمسيحية التى قدر لها أن تتمخض يومًا عن سفر الرؤيا.

من نواتج التراث الرؤيوى الأول سفر دانيال. والنصوص التى جمعت وحُفظت فى هذا السفر أنشئت فى بابل فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد، أى قبل ثورة المكابيين بحوالى أربعة قرون. والملك الذى ورد وصفه فى سفر دانيال نبوخذنصَّر، الإمبراطور البابلى الذى غزا يهوذا ودمر هيكل أورشليم [القدس] وسبى حكام اليهود وكهانهم والطبقة العليا منهم. إلا أن الباحثين يجمعون على أن الحكايات التى وردت فى السفر أنشئت وجمعت فى القرن الثانى قبل الميلاد، وكان القراء الأوائل لسفر دانيال يعتبرون نبوخذنصر بديلا لأنتيوخوس المجنون.

يقول راولى: «وأية وسيلة أفضل من ذلك كان يمكن لكاتبه أن يختار إن أراد أن

يشد من أزر المؤمنين فى وقت الشدة والاضطهاد؟»[٤٤]. «فكانت بمثابة تسلية، وكانت فى الوقت نفسه تتضمن رسالة، وبذلك يسهل تذكرها وتناقلها شفاهةً»[٤٥].

هناك سمة خرافية ما تغلب على سفر دانيال. فيروى أن من بين المسبيين ببلاط نبوخذنصر كان فتية يهود من نسل المُلك «حِسَانَ الْمَنْظَرِ حَاذِقِينَ فِى كُلِّ حِكْمَةٍ» وكان دانيال أحسنهم منظرًا وأحذقهم[٤٦]. وعندما يهدد الملك الوثنى بقتل دانيال ما لم يبح بمغزى حلم غامض حير المنجمين والسحرة والعرافين الملكيين، يبتهل دانيال لرب إسرائيل أن ينزل عليه وحيًا. ويستجيب الرب لدعاء دانيال ويكشف معنى الحلم.

يقول دانيال شاكرًا: «لِيَكُنِ اسْمُ اللَّهِ مُبَارَكًا مِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ لأَنَّ لَهُ الْحِكْمَةَ وَالْجَبَرُوتَ ... هُوَ يَكْشِفُ الْعَمَائِقَ وَالأَسْرَارَ. يَعْلَمُ مَا هُوَ فِى الظُّلْمَةِ»[٤٧].

و«الأسرار» التى يكشفها الرب لدانيال تخالف ما يقول سائر الكتّاب التوراتيين عن مصير «الشعب المختار». ففى مواضع أخرى من الكتاب المقدس ـ كما رأينا ـ يوصف الرب نفسه بأنه من يرسل نبوخذنصَّر وغيره من الغزاة الأغيار لابتلاء بنى إسرائيل، وكل ذلك بسبب زندقتهم وفجورهم. وهنا تدخل الكتاب المقدس فكرة جديدة فحواها أن الشعب اليهودى تعرض للبلاء لا من قبل الرب من علٍ بل من قبل الأشرار على الأرض، وأن الرب سيخلصهم ذات يوم من ظالميهم بإرسال مخلِّص يهزم الأعداء ويقيم مملكة أبدية من السلم والكمال الإلهيين لمن يظل على ولائه للتوراة من اليهود. يقول رسول سماوى لدانيال: «أَمَّا قِدِّيسُو الْعَلِيِّ فَيَأْخُذُونَ الْمَمْلَكَةَ وَيَمْتَلِكُونَ الْمَمْلَكَةَ إِلَى الأَبَدِ وَإِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ»[٤٨].

والفكرة تعبر عنها «رؤى الليل» التى يرويها دانيال. أربعة وحوش رهيبة «هَائِلَةٍ وَقَوِية وَشَدِيدةٍ جِدًّا» تخرج من البحر وتنتشر على الأرض وتلتهم كل ما يصادفها. والرب يوصف هنا بأنه «قَدِيمُ الأَيَّامِ»، وفى صورة ملِك أبيض الشعر جالس على عرشه السماوى يحيط به ملائكة طائعون عددهم «ألوف الألوف» ويتحرك بنفسه ليهزم آخر الوحوش وأبشعها، وهو وحش ذو عشرة قرون وأسنان حديدية ومخالب نحاسية. يقول دانيال: «كُنْتُ أَنْظُرُ حِينَئِذٍ ... قُتِلَ الْحَيَوَانُ وَهَلَكَ جِسْمُهُ وَدُفِعَ لِوَقِيدِ

النَّار». وفى النهاية يُرسَل مخلِّص سماوى «مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ» إلى الأرض فوق سحابة. «فَأُعطِى سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتا... سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِىٌّ مَا لَنْ يَزُول»[٤٩].

كل هذه العناصر الأدبية ــ الرب على عرشه السماوى، والملائكة يخدمونه، والوحوش الرمزية التى تجوب الأرض ـ يعاد توظيفها لأغراض أخرى فى سفر الرؤيا. ولعل سفر دانيال أهم «النماذج والمصادر» العديدة التى يبدو أن مؤلف سفر الرؤيا استلهمها فى كتاباته. لذا فلا بد لنا أن نحاول سبر غور مناهج سفر دانيال ومعانيه قبل أن نشرع فى حل الألغاز الأعمق التى تكتنف سفر الرؤيا.

إن مفتاح لغز سفر دانيال وكافة الكتابات الرؤيوية بما فى ذلك سفر الرؤيا، يكمن فى حقيقة بسيطة مفادها أن رؤاه الليلية ينبغى ألا تؤخذ بمعناها الحرفى، بل إن السفر نفسه يقول ذلك: «وَأَفْزَعَتْنِى رُؤَى رَأْسِى. فَاقْتَرَبْتُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْوُقُوفِ وَطَلَبْتُ مِنْهُ الْحَقِيقَةَ فِى كُلِّ هَذَا»[٥٠]. ويفسر الملَك الواقف بأناة بأن الوحوش فى الحقيقة رمزية خالصة. يقول دانيال: «فَأَخْبَرَنِى وَعَرَّفَنِى تَفْسِيرَ الأُمُورِ: هَؤُلاَءِ الْحَيَوَانَاتُ الْعَظِيمَةُ الَّتِى هِى أَرْبَعَةٌ هِى أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ يَقُومُونَ عَلَى الأَرْضِ»[٥١]. والمملكة الرابعة التى يرمز لها فى الحلم بوحش ذى عشرة قرون ستشهد حكم عشرة ملوك أقوياء، ولكنها فى النهاية ستتداعى و«عَظَمَةُ الْمَمْلَكَةِ تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ تُعْطَى لِشَعْبِ قِدِّيسِى الْعَلِىِّ»، أى الشعب اليهودى أو على الأقل «القديسين» منهم ممن ظلوا أوفياء للعهد[٥٢].

وما أن يُسمح لنا بقراءة سفر دانيال كسرد تاريخى رمزى لا حَرفى ــ وهو فى الحقيقة ما يرشدنا إليه مؤلف السفر نفسه ــ حتى تظهر معان جديدة كاشفة من النص الغامض، بل إن سفر دانيال يتحدث بصورة مباشرة عن تجربة الشعب اليهودى الذى كان يواجه تعديات أنتيوخوس المجنون وإغراءات الحضارة الهيلينية فى آن فى وقت تدوين السفر وقراءته لأول مرة، أى عمن يسعى المؤلف لشد أزرهم ومواساتهم. فسفر دانيال ـ ككثير غيره فى الكتاب المقدس وبصراحة ـ يدخل فى عداد الدعاية لا النبوءة.

مِن ثَمَّ يأبى دانيال أن يأكل الطعام المترف والنبيذ الفاخر الذى يقدمه حاجب بلاط الملك الوثنى، ويَقنع بجرايته اليومية من الفول والماء، فيما يعد قدوة للسلوك القويم

لليهود ممن كانوا يُدعون (أو يضطرون) لمخالفة تشريعات الـ «كَشروت». وحين يأمر نبوخذنصَّر بنصب صنم ذهبى وعبادته، كان الهدف أن يدرك قراء دانيال أن المقصود هو أنتيوخوس الذى دنس قدس الأقداس بهيكل أورشليم [القدس] بنصبه صنمًا لزيوس فيه. وعندما يختار رفاق دانيال الثلاثة مِيشَخَ وشَدْرَخَ وعَبْدَنَغُوَ الموت حرقًا على السجود للصنم، ينقذهم من المعاناة ملَك حارس ينضم إليهم فى داخل التنور، وهى مواساة لأى يهودى يتعرض لألوان التعذيب التى ورد وصفها لدى يوسفوس أو مؤلف سفر المكابيين.

يعلن الحاكم الوثنى الذى يروعه ما يرى: «هَا أَنَا نَاظِرٌ أَرْبَعَةَ رِجَالٍ مَحْلُولِينَ يَتَمَشُّونَ فِي وَسَطِ النَّارِ وَمَا بِهِمْ ضَرَرٌ وَمَنْظَرُ الرَّابِعِ شَبِيهٌ بِابْنِ الآلِهَةِ»(٥٣).

وفوق هذا وذاك، يثبُت دانيال على وعده بأن يتخلص الشعب اليهودى من كل معاناة؛ لأن التاريخ نفسه كما نعرفه له نهاية. يقول أحد الرسل السماويين الذين يهبون دانيال سلسلة من الرؤى: «جِئْتُ لأُفْهِمَكَ مَا يُصِيبُ شَعْبَكَ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ». ويقول أحد الرسل إن ملِكًا لئيمًا ماكرًا سيقف ضد أمير السلم، ولكنه سيهزم، ولو أن أداة هزمه لن تكون بيد بشر. وبعد فترة أخيرة من المحن ــ «زَمَانُ ضِيقٍ لَمْ يَكُنْ مُنْذُ كَانَتْ أُمَّةٌ إِلَى ذلِكَ الْوَقْتِ» ـ يهبط ميخائيل رئيس الملائكة من السماء ليحارب آخر ملوك الشر «وَفِي ذلِكَ الْوَقْتِ يُنَجَّى شَعْبُكَ»(٥٤).

وهكذا يضفى دانيال سمة جديدة على اللاهوت القديم للكتاب المقدس العبرى. فزوار دانيال الليليون يسلمون جدلاً بأن الرب يبتلى الشعب اليهودى بسبب ولائهم، كما حذر موسى، بل إنهم يعدون أيضًا بأن الرب سيصالحهم يومًا و«يُؤْتَى بِالْبِرِّ الأَبَدِي»(٥٥). ولتدارك حقيقة أن الرب لا يفعل شيئًا لمنع الطغاة من تعذيب رعاياهم اليهود وقتلهم، يركز الملائكة على احتمال أن يأتى يوم بعث يحاسب فيه الموتى فيثابون أو يعاقبون كلٌّ على قدر عمله.

يعد الملائكة قائلين: «وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ هَؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَهَؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ». وحين يحين وقت نهاية العالم

فإن الأرواح الطيبة لا تنتظرها حياة طيبة على الأرض وحسب، بل حياة أبدية فى الجنة. فيؤكد الزوار لدانيال وقرائه أن: «الْفَاهِمُونَ يَضِيئُونَ كَالْكَوَاكِبِ إِلَى أَبَدِ الدُّهُورِ»[٥٦].

كان القصد من تزامن الأفكار فى سفر دانيال تخفيف معاناة اليهود أو الأتقياء منهم على الأقل ممن عاصروا ثورة المكابيين. إلا أن مشاهد البعث والحساب والحياة الأبدية كانت غير مألوفة ومؤجلة بالنسبة للأنبياء التوراتيين الكلاسيكيين، كفكرة أن الرب والشيطان يتصارعان على قلوب «الشعب المختار» وعقولهم. ولم يكن لهذه الأفكار دور كبير فى التراث اليهودى الذى واصل التركيز على الصلة الحميمة بين إله إسرائيل و«الشعب المختار» فى الحياة الدنيا لا فى الآخرة.

ولكن حين فضَّ مؤلف سفر الرؤيا الرسالة اللاهوتية لسفر دانيال فى القرن الأول من الميلاد وجد طرقًا جديدة وفعالة لتناول معاناة جيل جديد من الأتقياء. ولم يكونوا أقل اغترابًا عن الثقافة العليا للوثنية الكلاسيكية من ضحايا أنتيوخوس، وأحسوا بأنهم لا يقلون عنهم تعرضًا لخطر الاضطهاد والموت. واستجاب قراء سفر الرؤيا ومستمعوه الأوائل للطريقة الجديدة لقراءة الكتاب المقدس العبرى. وإذا كان التراث الرؤيوى «ابن النبوة» فإن التراث الرؤيوى نفسه هو «أم المسيحية»[٥٧].

وأفكار البعث والحساب ليست التجديدات اللاهوتية الوحيدة التى تطالعنا فى سفر دانيال. فهناك مؤلفون توراتيون آخرون يصورون الملائكة، مثلا، كسعاة سماويين لا أكثر؛ بل إن «رسول» هو المعنى الحرفى لكلمة «مَلَك» العبرية التى تُرجمت بمعنى «ملاك». فى حين أن مؤلف سفر دانيال يستعير فكرة تسلسل هرمى صارم للملائكة من التراث الفارسى مباشرةً. فيقول دانيال عن بلاط «قديم الأيام» السماوى: «أُلُوفُ أُلُوفٍ تَخْدِمُهُ وَرَبَوَاتُ رَبَوَاتٍ وُقُوفٌ قُدَّامَهُ»[٥٨]. وهو المؤلف التوراتى الوحيد الذى يشير إلى رئيسى الملائكة جبرائيل وميخائيل اللذين سيلعبان دورًا مهمًّا فى سفر الرؤيا وغيره من الكتابات الرؤيوية[٥٩].

ودانيال المؤلف التوراتى الوحيد أيضًا الذى يستعمل عبارة «ابن الإنسان» بالمعنى

المنطوى على تناقض ظاهرى، والذى سيصبح مألوفًا لقراء الكتابات المقدسة المسيحية؛ فحين يشير دانيال إلى أحد بعبارة «ابن الإنسان» فإنه يقصد أنه ليس من نسل البشر العاديين. إلا أن العبارة تتخذ معناها الطبيعى فى مواضع أخرى من الكتاب المقدس العبرى؛ فترد عبارة «ابن الإنسان» فى سفر أيوب، مثلاً، فى سياق إيضاح أن الرب أكبر من مجرد كيان فان: «فَكَمْ بِالْحَرِيِّ الإِنْسَانُ الرِّمَّةُ وَابْنُ آدَمَ الدُّودُ»(٦٠). أما عند دانيال فإن «ابن الإنسان» كيان سام خالد وقوى: «كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الأَيَّامِ فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ. فَأُعْطِيَ سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ»(٦١).

كما يقدم سفر دانيال أول مثال فى الكتاب المقدس لمعالجة الأرقام، والذى أصبح عادة استحوذت على قراء سفر الرؤيا. فيبدأ سفر دانيال بما يبدو كأنه فقرة مباشرة من سفر إرمياء، يتنبأ فيها النبى بأن السبى البابلى سيستمر لمدة سبعين سنة بالتمام. فيقول الرب لإرمياء: «إِنِّي عِنْدَ تَمَامِ سَبْعِينَ سَنَةً لِبَابِلَ أَتَعَهَّدُكُمْ وَأُقِيمُ لَكُمْ كَلاَمِي الصَّالِحَ بِرَدِّكُمْ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ»(٦٢) إلا أن الملَك جبرائيل يشرح لدانيال أن النبى القديم كان يقصد سبعين أسبوعًا من السنين، أى سبعون × سبعة، أى أربعمائة وتسعون سنة. والأهم أن إرمياء كان يقصد التنبؤ، لا بنهاية السبى البابلى وحسب، بل بنهاية كل الشرور الأرضية وحلول الفردوس السماوى أيضًا. فيقول رئيس الملائكة: «سَبْعُونَ أُسْبُوعًا قُضِيَتْ عَلَى شَعْبِكَ لِتَتْمِيمِ الْخَطَايَا وَلِكَفَّارَةِ الإِثْمِ وَلِيُؤْتَى بِالْبِرِّ الأَبَدِيِّ»(٦٣).

والحقيقة أن دانيال يتلقى خبرًا بتوقيت دمار العالم الآثم، ولو أن الملَك يقدم حسبتين مختلفتين لآخر الزمان. فيوهب دانيال رؤية يتكشف له فيها أن النهاية ستحل بعد «إِقَامَةِ رِجْسِ الْمُخَرِّبِ»(٦٤) بألف ومائتين وتسعين أو ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين يومًا، إلا أن الباحثين يذهبون إلى أن العبارة تشير إلى تمثال زيوس الذى نصبه أنتيوخوس فى هيكل أورشليم [القدس]. ولعل مؤلف سفر دانيال لم يجل بخاطره سوى الفترة التى مرت بين نصب الصنم وإعادة تكريس الهيكل بعد إزالة ذلك الوثن المهين، وهو حدث يحتفل به اليهود فى عيد الحانوكاه. وإيراد فترتين قد يعنى أن التاريخ

الذى تنبأ به المؤلف الأول مر دون حدوث شىء، وبالتالى جاء كاتب فى فترة لاحقة وشعر بأن الواجب يملى عليه أن يضيف إلى النص فترة أخرى أطول.

وكان التاريخ الثانى خطأ أيضًا، بالطبع، أو على الأقل لو كان المقصود به تحديد توقيت نهاية العالم. إلا أن هذا التلاعب بالألفاظ لم يكن ذا بال بالنسبة لقراء الكتاب المقدس من الباحثين عن معان خفية فى النص، سواء فى ذلك الوقت أو حاليًّا. فلو كانت النبوءة التوراتية «رسالة مشفرة يحلها المفسر الملهَم» كما يقول چون كولنز، فالأمر متروك للقارئ أن يحل الشفرة ويكشف الرسالة الخفية. وهناك كثرة من الناس حاولوا وبذلوا جهودًا مضنية فى هذا الصدد منذ ذلك الحين ـ كما سنرى[٦٥].

يقول راولى: «كان النص كنبوءة بالنهاية فاشلاً، أما كقوة روحية فاعلة فكان ناجحًا إلى حد بعيد»[٦٦].

لكل هذه الأسباب، فإن سفر دانيال منبع التكهن الرؤيوى، وتعرضت كلماته وعباراته طوال الألفى سنة الماضية للتنقيب بحثًا عن معان كاشفة. واعتُبر التراث الرؤيوى الغربى فى مجمله «حواشٍ على رؤى دانيال النبوئية»[٦٧]. وما يعرف بـ«الرؤيوية الثانوية للأناجيل» ـ الفقرات التى وردت بأناجيل متى ومرقس ولوقا والتى يصف فيها يسوع كيف سينتهى العالم ـ تسمى: «مدراشًا مسيحيًّا قديمًا أو امتدادًا لرواية دانيال عن الأحداث الأخيرة»[٦٨].

وأفضل مقياس لمكانة دانيال وتأثيره على التراث الرؤيوى، نجده فى سفر الرؤيا الذى يستقى من سفر دانيال أكثر مما يستقى من أى نص مقدس غيره، يهوديًّا كان أو مسيحيًّا. لكن سفر دانيال ليس النص الرؤيوى الوحيد أو الأقدم فى التراث اليهودى القديم. بل إن مؤلف سفر دانيال ربما استلهم نصوصًا أقدم، ولم يكتف بكتابات الأنبياء الموجودة أصلاً فى الكتاب المقدس. وما أن نتتبع مؤلف سفر الرؤيا إلى مصدر التراث الرؤيوى نجد أنفسنا فى مكانٍ مشاهده أغرب.

نقطة بدء التراث الرؤيوى فى اليهودية قد نجدها فى المجموعة الغريبة والمشوشة من النصوص القديمة المعروفة باسم «سفر أخنوخ الأول» والتى يسبق أقدمها سفر دانيال

بنصف قرن أو نحو ذلك[٦٩]. وكل الكتابات تعزى لشخصية أخنوخ التوراتية، ولكن أنشأها كتّاب حقيقيون مختلفون على مدى سبعة قرون. وهنا نجد «النواة التى تحوى لب الفكر الرؤيوى والتى نشأ منها التراث بأكمله» حسب قول الباحث الإيطالى پاولو ساتشى المتخصص فى الدراسات الرؤيوية[٧٠].

يبرز اسم أخنوخ أبو متوشالح فى كل من التراث الرؤيوى والصوفى بسبب الظروف الغامضة لوفاته، كما وردت فى سطر واحد من سفر التكوين: «وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ»[٧١]. ففى ضوء تراث قديم وباقٍ تُفهم الفقرة بمعنى أن أخنوخ لم يمت ميتة عادية، بل رفع إلى السماء حيًّا. وبذلك أصبح يستعمل كشخصية مصدرية لدى مختلف الكتّاب الرؤيويين ممن أخذوا يتخيلون «الغرائب» التى تكشفت له فى مملكة السماء.

يتوسع «سفر أخنوخ الأول» ـ على سبيل المثال ـ فى حكاية مفعمة بالحيوية عن جماعة من الملائكة الشهوانيين والعصاة وردت بصورة مختصرة فى سفر التكوين. تصور الحكاية التوراتية كيف هبط ما يعرف بـ«أبناء الرب» (بناى إلوهيم) إلى الأرض طلبًا «لبنات البشر» ممن تجسسوا عليهن من السماء فأنجبوا سلالة من الجبابرة[٧٢]. ويواصل «سفر الرقباء» ليكشف عن أن الملائكة المتدنين هم فى الحقيقة أتباع الشيطان و«سبب كل ما على الأرض من شرور»[٧٣].

يستعمل مؤلف «سفر الرقباء» مصطلح «رقيب» فى إشارة إلى الشخوص السماوية التى تسمى فى غيره «ملائكة»، وهو إبدال تعبيرى يصادفنا فى سفر دانيال أيضًا. يقول دانيال: «كُنْتُ أَرَى فِى رُؤَى رَأْسِى عَلَى فِرَاشِى وَإِذا بِسَاهِرٍ وَقُدُّوسٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ»[٧٤]. وهنا نجد نقطة اتصال أخرى بين دانيال والكتابات الأخرى فى التراث الرؤيوى، وهى أنه لا وجود لملَك يسمى «رقيبًا» فى أى موضع آخر من الكتاب المقدس العبرى. وهنا أيضًا يختار المؤلف لغة غريبة بل مخيفة: فالرقباء يتلصصون ويتحرشون بدلاً من أن يكونوا حراسًا.

والرقباء مذنبون بما هو أكثر من جرائم الحب، أو هكذا يكتشف أخنوخ. كما أنهم

يكشفون «أسرارًا سماوية» لبنى آدم ومنها «الرقى والتعاويذ» لتحقيق مناقب السحر، و«فن تجميل العيون وتزيين الجفون» بغرض الإغراء، وفن ترصيع «السيوف والخناجر والدروع والتروس» لاستعمالها فى شن الحروب. ويرسل الرب رفائيل رئيس الملائكة لشد وثاق رئيس الملائكة العصاة، وهو هنا شخصية شيطانية تسمى «عزازيل»، ورميه فى حفرة فى الصحراء إلى «يوم الحساب العظيم» حيث «يُلقى به فى النار»[٧٥]. لكن بعد فوات الأوان، فقد وقع الضرر بالفعل.

تقول إحدى فقرات «سفر الرقباء» ـ الذى يبدو أنه كان يعكس تجربة حياة قرائه الأوائل من «الأتقياء» ممن كانوا يخوضون حربًا حضارية ضد الهيلينية: «تغيرت الدنيا وأصبح هناك عقوق عظيم وكثير من الفسق، فضلّوا وفسدت كل سبلهم»[٧٦].

وهناك حكاية أخرى فى سفر أخنوخ وهى «رؤيا الحيوان» من المؤكد أنه كان لها صدى مختلف، ولكنه لا يقل قوة لدى قرائها. وكل الشخوص فى الحكاية تصور كحيوانات: فآدم مثلاً يظهر متخفيًا فى صورة ثور، والملائكة العصاة لا ينجبون ذرية بشرية، بل فيلة وإبلاً وحميرًا. وفى نقطة الذروة فى «رؤيا الحيوان» يُهزم الأشرار على الأرض على يد جيش من «حملان صغيرة» نبتت لها قرون ـ وقائد القطيع الحمل ذو القرن الأكبر ـ ويخوضون المعركة بسيف وهبه لهم «سيد الأغنام»[٧٧]. هذه الحكاية الرمزية الخرافية المتقنة كان يمكن أن يفهمها القراء فى يهوذا فى القرن الثانى قبل الميلاد. يفسر چون كولنز قائلاً: «من الواضح أن الحمل ذا القرن الكبير هو يهوذا المكابى، والسياق سياق ثورة المكابيين»[٧٨].

وما «سفر الرقباء» و«رؤيا الحيوان» إلا نصان من النصوص التى تم جمعها معًا فى سفر أخنوخ الأول. وتشمل الكتابات الرؤيوية الأخرى بالمجموعة نفسها «السفر الفلكى» و«سفر الأحلام» و«رؤيا الأسابيع»، وكلها نصوص غريبة على أى قارئ تقوم تجربته مع اليهودية على التوراة والتلمود. وهناك مجموعتان أخريان تعرفان بسفرى أخنوخ الثانى والثالث، وتشتملان أيضًا على كتابات رؤيوية، ومثلها العديد من الأعمال الأخرى التى توصف بأنها «أشباه نقوش»: «رؤيا إبراهيم» و«شهادة الآباء» و«سفر اليوبيل» و«الوحى الإلهامى الثالث» وغير ذلك.

كل هذه النصوص الرؤيوية ـ كما أشرنا من قبل ـ تم استبعادها من الكتاب المقدس العبرى نفسه. والحقيقة أنها تمثل تخيلات أناس وضعوا أنفسهم على حواف المجتمع اليهودى، وأحيانًا وراءه كما فى حالة مجتمع قمران. ومع ذلك فهذه النصوص أول مكان تتجسد فيه لأول مرة أشهر الشخصيات فى كل من اليهودية والمسيحية، بما فى ذلك المخلِّص الإلهى الذى يعرف بـ«المسيح»، والخصم الإلهى المعروف بـ«إبليس»، بل إن النصوص الرؤيوية كانت بوتقة الكيميائى التى تمت فيها تنقية المواد الخام المستخلصة من الكتاب المقدس ثم أعيد صوغها فى شىء جديد ذى بريق.

فالنسخة التوراتية من المسيح، مثلاً، ليست الشخصية السامية التى كان سيصبح عليها فى التراث الرؤيوى فى كل من اليهودية والمسيحية. ولقبه مستمد من اللفظ العبرى «مَشيَح» والذى يعنى «ممسوحًا»: أى من صُب على رأسه الزيت فى طقس طهارة كان يعقد لترسيم الشخص فى الكهانة أو لتتويج ملك. و«المسيح» بالنسبة لمؤلفى الكتاب المقدس العبرى لا يزيد عن بشر يتولى منصبًا رفيعًا أو أسندت إليه مهمة خاصة ما.

وهكذا فإن هارون مثلاً ـ وهو أول كبير كهنة بنى إسرائيل ـ كان مسيحًا، وكذلك كان شاول وداود أول ملكين لبنى إسرائيل. ولكن المرء ـ طبقًا لما ورد بالكتاب المقدس ـ ليس بحاجة لأن يكون ملكًا أو كبير كهنة أو حتى عابدًا لإله بنى إسرائيل حتى يستحق اللقب الرفيع «مسيح». ويشير الكتاب المقدس ـ كما رأينا ـ إلى إمبراطور فارس الوثنى باعتباره «مسيحًا» لمجرد أنه أفلح فى هزم إمبراطور بابل الوثنى، وبذلك أعاد الشعب اليهودى المسبى إلى وطنه، لذا فلو كان مؤلف سفر الرؤيا اقتصر على الكتاب المقدس العبرى لما أعطانا شخصية «المسيح» السامية المحتفى بها بهذا القدر الجليل فى موشحة هاندل الدينية.

ولا تجد الصورة المألوفة للمسيح كمخلِّص سماوى أول وأكمل تعبير عنها إلا فى الكتابات الرؤيوية، حيث يتم دمجها بالمنقذ الإلهى الذى يعرف فى الوقت نفسه بـ«ابن الإنسان». فـ«شبيه ابن الإنسان» و«المسيح» شخصيتان مختلفتان عند دانيال؛ الأول شخصية سماوية يهبه الرب مملكة أبدية، أما الآخر فأمير فانٍ «يُقطَع ويَفنى»[٧٩]. وعلى النقيض فإن «رؤيا الأسابيع» ـ وهى إحدى الكتابات فى سفر أخنوخ الأول ـ تصف

«ابن الإنسان» قاضيًا ومنقذًا ومخلِّصًا من النوع الذى يتم تقديمه فى كل من التراث اليهودى والمسيحى باعتباره «المسيح».

ترد فى سفر أخنوخ الأول فقرة تقول: «وشعب الرب كانوا فى فرح عظيم لأن اسم ابن الإنسان تكشف لهم، وجلس على عرش مجده، وأُعطى الحكم كله لابن الإنسان، وهو سيؤدى بالآثمين إلى العدم ويفنون من وجه الأرض. ومنذ ذلك الحين لن يكون شىء فاسد»(٨٠).

وحتى بعد أن اتخذ مصطلح «مسيح» معناه كمخلِّص مرسل من عند الرب، فإن تنويعات اليهودية كما كانت تمارس فى العالم القديم لم تُجمع على هوية المسيح وما يعمل. وبعض المصادر الرؤيوية لديها تصور عن مسيحين، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط لاوى، أحدهما ملِك والآخر كاهن. ولا تُجمع على المدة التى سيستمر فيها حكم المسيح على الأرض. وتقدم إحدى لفائف البحر الميت، مثلاً، تصورًا عن أن الحقبة المسيحانية لا تزيد عن حرب تستمر أربعين سنة ضد محتلى يهوذا من الرومان، ونص رؤيوى بعنوان «٤ عزرا» تحدد حكم المسيح بأربعمائة سنة ينتهى بعدها العالم كله.

وإبليس أيضًا يتدنى ــ كما رأينا ــ إلى دور المدعى الإلهى فى الكتاب المقدس ــ العبرى، ولا يرقى إلى مرتبة «أمير الظلام» إلا فى الكتابات الرؤيوية، بل إن إبليس يتم تصوره فى صورة الند الشيطانى للرب، شخصية قوية نافذة الكلمة ينازله المسيح ويهزمه فى آخر الزمان. ويُعرف الشرير الأكبر الشيطانى بعدد من الأسماء فى النصوص الرؤيوية: أزموديوس، عزازيل، مستيما، بليال (أو بليار أحيانًا) وغير ذلك كثير، إلا أنها جميعًا تعد واحدة ولا تختلف عن الشرير الذى يطلق عليه مؤلف سفر الرؤيا فيما بعد وصف «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ».

وهكذا فإن مجموعة الشخصيات المتنوعة التى ستظهر فيما بعد على صفحات سفر الرؤيا، ليست كلها من ابتكار المؤلف ولا وفية تمامًا للنصوص التوراتية التى كان يعرفها تمامًا، بل كانت كلها شخصيات موجودة فى الثقافة الفرعية الرؤيوية لليهودية القديمة. ولم يكن القصد منها مجرد تسلية قراء وسامعى أقدم النصوص الرؤيوية أو إثارتهم أو

تخويفهم. بل كان القصد من الشخصيات فى الدراما الرؤيوية حث الناس العاديين على العمل كجنود مخلصين فى الحرب الحضارية على الوثنية الكلاسيكية، وفى حرب التحرير القومية التى كانوا يحاربون ضد الغزاة الوثنيين للوطن اليهودى القديم. إذن فالكتابات الرؤيوية القديمة كانت بالنسبة لليهود الأتقياء واليهود الوطنيين على السواء أدب مقاومة، ولكنها مقاومة من نوع مختلف تمامًا عما كان يتم تشجيع القراء الأوائل على ممارسته تجاه مضطهديهم الرومان.

يبين لنا يوسفوس أن الشعب اليهودى كان يتبنى مجموعة من التكتيكات فى استجابته لإغراءات الهيلينية وتهديدات الإمبريالية الرومانية. فبعض اليهود مثل يوسفوس نفسه عقدوا سلامًا مربحًا مع روما. وحمل بعض آخر منهم ــ وهم «الغيورون» ـ السلاح ضد روما باسم الرب، والوطن. وهناك قلة من اليهود يطلق عليهم يوسفوس «الرهبان» اعتزلوا فى البرية فى انتظار نهاية العالم، حيث تخوض جيوش الرب حربًا على جيوش الشيطان.

من الباحثين من يربط «الرهبان» بـ«المجتمع الرؤيوى» فى قمران، وهى المكان الذى اكتشفت فيه لفائف البحر الميت. وتوقعاتهم العاجلة مدونة فيما يعرف بـ«لفائف الحرب» والتى تتخيل نشوب معركة حاسمة بين «أبناء النور» و«أبناء الظلام»، يقودها على أحد الجانبين رئيس الملائكة ميخائيل وعلى الجانب الآخر الشخصية الشيطانية المسماة «بليال»[٨١]. وهنا نجد مثالاً آخر للطريقة التى كان ينقب بها الكتّاب الرؤيوين فى المادة الخام للكتاب المقدس بحثًا عن معان جديدة وثورية لا يظهر «بليال» فى الكتاب المقدس نفسه إلا كاسم مجرد ربما كان معناه «تفاهة» ولكنه يُستحضَر فى التراث الرؤيوى باعتباره «الخصم الأكبر للرب»[٨٢].

ومع ذلك، فإننا لا ندرى ما إذا كان مؤلفو سفر دانيال وسفر أخنوخ الأول ولفائف البحر الميت أعضاء فى حركة واحدة فى اليهودية الأولى، أو ما إذا كانوا يستحقون أن يطلق عليهم اسم «حركة» أصلاً. ولا يسع الباحثون إلا أن يلجئوا للحدس عما إذا كان «الأتقياء» (حَسيديم) ممن ورد ذكرهم فى سفر المكابيين و«الحكماء» (مَسكيليم) المشار إليهم فى سفر دانيال و«الرهبان» الذين يشير إليهم

يوسفوس أسماء مختلفة لمجموعة واحدة من الناس ؛ لذا فإن لفائف البحر الميت ، مثلاً ، كانت فيما مضى تُنسَب بكل ثقة لرهبان اليهود ، إلا أن الباحثين الأكثر حذرًا يكتفون بالإشارة إلى « طائفة قمران » ويتساءلون عما إذا كانت لهم صلة بالمجتمعات الرؤيوية الأخرى لليهودية القديمة وكيف[٨٣]. ومع ذلك فإن ما يجمع بينهم واضح. فكل هؤلاء الناس كانوا يشعرون بالغربة عن العالم الذى وجدوا أنفسهم فيه. وحتى حين لم يُمنعوا من ممارسة اليهودية الخالصة التى كانوا يعتنقون ، كانوا يشعرون بالمهانة حين كان بنو جلدتهم من يهود يُحرمون هذا الحق. وهكذا فإنهم حين كانوا يتأملون ملكًا يهوديًّا اتخذ اسم غازٍ وثنى ، أو كبير كهنة يهودى يعلم النشأ المصارعة وهم عراة فى الألعاب الإغريقية ، أو أى عدد من الآباء اليهود ممن أهملوا ختان أبنائهم ، كانت عقيدتهم الحقة تقول لهم إنهم يشهدون مظهرًا آخر لما يدينه الكتاب المقدس باعتباره « فجور الخراب » .

إذن كانت الفكرة الرؤيوية بالنسبة لمثل هؤلاء الناس بلسمًا وشرابًا فى آن. فكانت النصوص الرؤيوية تقول لهم أنتم اليوم تتعرضون للقهر والاضطهاد لكن قهركم واضطهادكم سينتهيان غدًا ؛ لأن العالم كله سينتهى. والأهم أنهم كان يتم تشجيعهم على النظر قدمًا لا لكى يستريحوا من المعاناة وحسب ــ بطل مسيحانى وجيشه من المحاربين المقدسين ممن سيهزمون الشرير الشيطانى الأكبر وجيشه من الأشرار ــ بل أيضًا ليثأروا ممن جعلهم يعانون أصلاً. وهكذا فنهاية العالم مناسبة لبعث الموتى ويوم الحساب والثواب والعقاب.

والأهم أن التراث الرؤيوى كان موجهًا لجمهور من الناس يعتبرون أنفسهم غرباء وضحايا ، وإن لم يعانوا القهر والاضطهاد فعلا فى أى زمان أو مكان. فالكتابات الرؤيوية تعكس « تجربة الاغتراب فى أوقات الأزمات » حسب الحكمة المعروفة ، إلا أن چون كولنز يذكرنا بأن « الاغتراب والأزمات قد تكون لها أشكال مختلفة » منها « الصدمة الحضارية » و « العجز الاجتماعى » و « الصدمة القومية »[٨٤]. وفى القرن الأول الميلادى ، ابتلى اليهود بأشكال الأزمة الثلاثة ، حيث كانت الرؤى تُدون وتقرأ حتى بين اليهود ممن ما لبثوا حتى اعتنقوا المسيحية.

لم تخمد الحرب الحضارية التى نشبت إبان ثورة المكابيين قط. وكان آخر ملك

يهودى يحمل فى عروقه دم المكابيين ــ أى ألكساندر ينايوس (١٠٣ ــ ٧٦ ق. م) ــ هيلينيًّا متعصبًا أصبح هدفًا لحركات الأصوليين الدينيين فى يهوذا، فوجه جيشه ضد أكثر رعاياه اليهود تدينًا فى حملة استمرت ست سنوات وراح ضحيتها خمسون ألف نفس. ولدى وفاته، أخذ المتنافسون على المُلك يتبارون على كسب الحظوة عند الإمبراطورية الرومانية آخر قوة عظمى فى العالم الوثنى. إلا أن روما عقدت العزم على إقرار القانون والنظام فى يهوذا مرة واحدة وإلى الأبد، وزحفت كتيبة رومانية على أورشليم [القدس] فى سنة ٦٣ ق. م وبذلك قضت الأقدار بسلسلة من الأحداث قدر لها أن تتمخض عن ثورة تمثلت فى تجديد اليهودية وظهور المسيحية.

فى البداية، قنعت روما بإدارة يهوذا من خلال سلسلة من الحكام التابعين لها وأشهرهم هيرود، وهو رجل من أصل عربى اعتنقت عائلته اليهودية فى ظل المكابيين. وكان هيرود هيلينيًّا طيبًا أعاد تجديد هيكل يهوه بأورشليم [القدس] على الطراز المعمارى الإغريقى الرومانى، وزين بلدات يهوذا ومدنها بالملاعب والمنشآت الرياضية، ولكن حين توفى هيرود ـ وسقطت يهوذا فريسة الفوضى مرة أخرى ـ زحف أحد القواد العسكريين الرومان على أورشليم [القدس] فخضعت يهوذا لحكم روما المباشر كإقليم مستحدث.

وفى أثناء ثورة المكابيين، بدأ اليهود ممن نقموا على غزو جيش أجنبى واليهود ممن سخطوا على غزو نمط حياة أجنبى فى التوافق. ورفضت السلطات الرومانية المقاومة اليهودية بوصفها «قطاع طرق» و«لصوصًا»، أما هم فكانوا يعتبرون أنفسهم «الغيورين»، فاستحضروا بذلك نموذجًا بطوليًّا للأبطال التوراتيين الذين كانوا «غيورين على شريعة العهد». ومرة أخرى، وكالمكابيين، حملوا السلاح ضد كل من جيش الاحتلال واليهود المندمجين ممن تعاونوا مع الرومان. وكان الـ «سيكارى» ــ على سبيل المثال ـ إرهابيين حضريين استهدفوا المتعاونين من اليهود بالاغتيال فى الأماكن العامة. ووجدت الأفكار والصور الرؤيوية التى دونت لأول مرة إبان ثورة المكابيين جمهور قراء جديدًا بين آخر أجيال التحرريين اليهود.

وربما كان من بين أكثر هذه المثل الرؤيوية حدة وتأثيرًا الشوق لمجىء مسيح مخلِّص

مرسل من عند إله إسرائيل لهزم قوى الشر وإحلال السلم وتحقيق الأمن والسيادة للشعب اليهودى. ولعل يوسفوس كان متنبهًا لتلك الفقرة من سفر دانيال التى يوهب فيها «مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ» ، «سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا» حين يصف قوة الفكر الرؤيوى إبان مقاومة اليهود ضد روما[٨٥]. يقول المؤرخ اليهودى القديم: «كان ما دفعهم أكثر من غيره للحرب وحيًا غامضًا عُثر عليه فى كتاباتهم المقدسة يشير إلى أنه سيظهر من بين ظهرانيهم فى ذلك الوقت من يحكم العالم»[٨٦].

كان يوسفوس الذى كان يكتب من منظور المتعاون مع الرومان، يزدرى المُثل التى كانت تحرك الوطنيين اليهود. فيصف يوسفوس أدعياء النبوة بأنهم «محتالون وأفاقون» «أغروا الأغلبية بالتصرف كالمجانين بزعم أن الوحى الإلهى يؤيد التغيير الثورى»[٨٧]. ويشير ساخرًا إلى أن أحد هؤلاء الأدعياء لا يعرف إلا باسم «المصرى» أغوى أتباعه ـ «حوالى ثلاثة آلاف مأفون» على حد تعبير يوسفوس ـ بأن بوسعه أن يهدم أسوار أورشليم [القدس] بإشارة منه[٨٨]. إلا أن يوسفوس يسمح لنا بحذر أيضًا أن نرى كيف يمكن لهذه الأفكار أن تكون قوية ومستفزة.

لحشد المدافعين عن أورشليم [القدس] إبان المعركة الفاصلة فى الحرب اليهودية فى سنة ٧٠ ق. م، مثلاً، لجأ قادة «الغيورين» والطوائف الأخرى إلى المنطق نفسه الذى ثبتت فعاليته تمامًا إبان ثورة المكابيين. يقول يوسفوس: «نصب قادة الفرقة فى الآونة الأخيرة عددًا من الأنبياء المأجورين لخداع الناس بحثهم على انتظار العون من الرب، وبذلك يقللون عدد المنشقين وإبقاء الأمل لدى من كانوا فوق مستوى الخوف والقلق». وعندما أضرم جند الرومان النار فى رواق الهيكل ـ حيث كان ما يقرب من ستة آلاف من الرجال والنساء والأطفال يحتمون ـ آثر الأكثر غيرة منهم أن يضحوا بأنفسهم: «فألقى بعضهم بأنفسهم هربًا من النيران ليهلكوا، بينما هلك غيرهم فى اللهيب، ولم يفلت من هذا العدد الكبير أحد»[٨٩].

انتهت الحرب اليهودية بهزيمة نكراء للمقاومة المسلحة ضد روما. ومرة أخرى هدم الهيكل ومرة أخرى سبى الشعب اليهودى. وعلى مدار القرن التالى ظهر تحرريون يهود جدد ـ ومطالبون جدد بتاج المسيح ـ وقاتلوا ضد الاحتلال الرومانى، ولكن لم يحقق

أيٌّ منهم انتصارًا. وتم خوض آخر حرب تحرير قومية ضد روما تحت قيادة قائد ميليشيا يدعى شمعون بار كُحبا أطلق عليه لقب «الملِك المسيح» من قبل الحبر أكيفا الذى كان من أبرز علماء الأحبار القدامى. إلا أن بار كحبا هُزم بدوره على يد الرومان، وكان تعذيبه وموته فى سنة ١٣٥ ق. م دليلاً لأتباعه من اليهود على أنه لم يكن المسيح. يقول أحد أحبار العصور الوسطى: «ما كان هذا ليتجلى إلا بالنصر، وهذه الحقيقة»[٩٠]. وهكذا بدأ الفكر المسيحانى فى اليهودية القديمة فى التحول من انتظار ملحّ إلى شوق قدَرى مخفف.

ورد عن أحد الأحبار البراجماتيين فى التلمود أنه قال للحبر أكيفا: «سينبت العشب فى عظام فكيك يا أكيفا بن يوسيف قبل أن يظهر المسيح»[٩١].

ومع ذلك، فليس كل مسيح دعىّ فى السنوات الأولى بعد الميلاد يمكن حذفه بسهولة. فمن أكثر شخصيات التراث الرؤيوى كاريزمية وحالية فى اليهودية من قُدر لرسالته أن تغير تاريخ العالم. وسمح هو أيضًا لأتباعه بالإيمان بأنه المسيح، ووعدهم بقرب تحقق نبوءات دانيال.

كان اسمه يشوع بار يوسف ولكنه معروف فى العالم باسم «يسوع». والحقيقة أن أفضل تعريف لشخصية يسوع التاريخية هو أنه «رؤيوى يهودى فى القرن الأول الميلادى» حسب قول باحث الكتاب المقدس المعاصر بارت إيرمن. و«رؤيوى» بالمصطلح المتداول لدى الباحثين معناه من يعتنق معظم أو كافة الأفكار الجديدة الغريبة التى تطالعنا فى سفر دانيال والكتابات الرؤيوية التى لم تدخل الكتاب المقدس. يقول إيرمن فى كتابه Jesus: Apocalyptic Prophet of the New Millennium (يسوع: النبى الرؤيوى للألفية الجديدة): «كان يسوع يعتقد أن تاريخ العالم سيشهد نهاية صارخة، وأن الرب سيتدخل فى شئون هذا الكوكب، ويطيح بقوى الشر بعمل عقابى كونى ويقيم مملكته المثلى هنا على الأرض. وكان هذا سيحدث لجيل يسوع نفسه»[٩٢].

إن مسألة إيمان يسوع بالتوقعات العاجلة والرهيبة التى تطالعنا فى سفر كل من أخنوخ الأول ودانيال والرؤيا كانت دائمًا محيرة بالنسبة لبعض المسيحيين، بل إن معظم باحثى الكتاب المقدس المعاصرين يستريحون لاعتبار يسوع معلمًا رحيمًا رقيقًا علم أتباعه

كيف يحيون حياة طيبة على الأرض، على اعتباره أحد المنذرين بالشؤم ممن تصورهم مجلة نيويوركر الهزلية رافعين لافتة كتب عليها «اقتربت الساعة!»، وعندما يقول نقاد الكتاب المقدس المحدثون إننا ينبغى أن نعتبر يسوع شيوعيًّا مسجلاً أو ناشطًا نسائيًّا قديمًا أو غير ذلك، فهم يسعون لتغيير معالم صورة يسوع التى تطالعنا فى العهد الجديد.

القراءة البسيطة للأناجيل تعد أفضل دليل على أن يسوع كان يؤمن وكان يبشر بأن العالم مقبل على نهاية وشيكة. فيقول يسوع فى إنجيل مرقس: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَام [الواقفين] هَهُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللَّهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ»[٩٣]. وإذا قرأنا الفقرة حرفيًّا نجد أنها تتنبأ صراحةً وبكل ثقة بأن الأحداث التى وردت فى الكتابات الرؤيوية ستقع فى حياة معاصريه. والفكرة نفسها تطالعنا فى رسائل بولس التى تعد أقدم النصوص المسيحية قاطبة، ومؤلفها يحدد الباحثون شخصيته بثقة تامة.

يقول بولس فى رسَالَته الأُولَى إِلَى أَهْلِ تَسَالُونِيكِى: «لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِهُتَافٍ بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ اللهِ وَالأَمْوَاتُ فِى الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً، ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ(*) جَمِيعًا مَعَهُمْ فِى السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِى الْهَوَاءِ وَهَكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ»[٩٤].

بل إن افتراض أن يسوع كان يؤمن بالفكر الرؤيوى مؤكدة فيما هو مسجل تاريخيًّا. ففى تراث مشترك بين كل من اليهودية والمسيحية، مثلاً، يعتقد أن المسيح سيكون من ذرية الملك داود مباشرةً، «قَضِيبٌ مِنْ جِذْعِ يَسَّى» حسب ما ورد فى عبارة بليغة فى نبوءات أشعياء[٩٥]. واعتبر الرومان المتنبهون للتراث مجرد الزعم بالدم الداودى ادعاء بالملَكية اليهودية. والحقيقة أن الفرقة العاشرة من جيش الاحتلال الرومانى فى يهوذا ظلت تؤمر بالثبات فى مواقعها من قبل أربعة أباطرة متتالين «حتى تتعقب أى يهودى يدعى أنه من نسل الملك داود وتعدمه»[٩٦].

(*) كتب القس الأمريكى تيم لاهاى سلسلة «المتروكون خلفًا ـ Left Behind» عن المجىء الثانى للمسيح، ومعركة أرمجدون، وأولئك المختطفين لملاقاة الرب، والباقين المتروكين خلفًا. ووزعت السلسلة ٦٠ مليون نسخة، وصارت لعبة للأطفال وشرائط فيديو.

وهكذا فحين يعلن بولس أن يسوع «مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَةِ الْجَسَدِ»[٩٧] وحين يقرر متى أن الرومان صلبوا يسوع؛ لأنه ادعى أنه «ملِك اليهود»[٩٨] ـ وهى جنحة سياسية لا دينية فى نظر القانون الرومانى ـ فإن روايتيهما تتفق تمامًا مع ما نعرف من مصادر خارج الكتاب المقدس عن المعتقدات المسيحانية لقدماء اليهود. وعندما يتداول يسوع وتلاميذه الكلمات والعبارات الرنانة المتداولة فى نصوص الأنبياء والنصوص الرؤيوية، فهم يتحدثون لغة مشفرة كان أتباعهم اليهود يفهمونها بوضوح.

بدأ الجدل حول ما إذا كان يسوع يعد نبيًّا رؤيويًّا فى السنوات الأولى من القرن العشرين بكتابات ألبرت شوايتسر الذى يعرف حاليًّا بعمله التبشيرى الطبى فى إفريقيا أو خبرته فى موسيقى باخ أكثر من اشتهاره ببحثه الرائد فى حياة يسوع التاريخية. إلا أن أقدم ما طرح من هذا الجدل يرجع إلى بداية المسيحية الأولى. ولم يكن جدلاً حول مسألة لاهوتية مجردة ما. وكان عدم انتهاء العالم عندما وعد يسوع بنهايته، معناه أن «الكنيسة كان عليها بالضرورة أن تتصالح مع نبوءتها الأساسية» حسب قول باحثة الكتاب المقدس المعاصرة پولا فردريكسن[٩٩].

وعندما كان المسيحيون الأولون يناضلون مع فشل العالم فى «الانتهاء فى موعده» كما تقول فردريكسن، واجهت الكنيسة فجأة وثيقة جديدة مفزعة أكدت كل هذه التوترات والتناقضات. ويدعى مؤلفها أنه وُهب رؤيا من قبل يسوع نفسه، وتملأ رؤياه أحرف مستمدة مباشرة من صفحات الكتاب المقدس العبرى والنصوص الرؤيوية اليهودية. ويصور يسوع كملِك محارب مسيحانى يحكم العالم الأرضى. ويصر كيسوع وبولس على أن نهاية العالم وشيكة. يقول يسوع فى ختام رؤيا المؤلف: «نَعَمْ! أَنَا آتِى سَرِيعًا»[١٠٠].

هذه الوثيقة المستفزة والمثيرة للجدل هى سفر الرؤيا بالطبع.

❁ ❁ ❁